الفصحى وكيف نشد أزرها

بقلم على النجدى ناصف
مفتش المعارف بالإسكندرية

لغة الأمة سجل حياتها ، الجامع لعلومها وفنونها ، وترجمانها المعبر عن آمالها وعواطفها ؛ فلا جرم أن تعنى الأمم الحية بلغاتها ، كما تعنى بأجل مرافقها شأنا ، وأكثرها عائدة . فلا تزال تتعهدها بما يكفل لها اطراد الحياة والنمو ، وييسر للناس أسباب حذقها ، واجتلاء نفائسها ، ويجعلها مرنة طيعة : تجارى العصر ، وتفى بجميع مطالب التعبير . ثم هى بعد لا تدخر حولا ولا حيلة لنشرها فى الناس على اختلاف أجناسهم ، فإن فى ذلك نشرا لثقافتها ، وعونا على تغليب صبغتها ، وتقريب شقة التقاطع بينها وبين غيرها ، وكسب أعوان و مريدين فى شتى الأرجاء ، يكون لكل جمهرة منهم ما للرأى العام من القوة والتأثير .

وعلى قدر نصيب الأمة من ذلك يكون نصيبها من أسباب النجاح فى الحياة فإن الثقافة صلة مرعية ، تربط المتخرجين فيها برباط محكم . وإن اختلفت أممهم وأجناسهم ، حتى لقد يعد الأجانب منهم — الأمة التى تزودوا بثقافتها أمة لهم أخرى ، ويعدون بلادها وطنهم الفكرى الذى يغذو عقولهم ، ويمتع نفوسهم ، ويوجه تفكيرهم ، ويطبع أذواقهم بطابعه . وهل هذا الذى نشهده فى مصر بعض الأحيان من الانحياز والتعصب ، أو المنازعة والخلاف على الثقافتين الإنجليزية والفرنسية إلا أثر لشيوع الثقافتين بيننا ، وإعجاب كل امرىء بالثقافة التى أتيحت له منهما ؟ أم هل هذا الذى نراه فى فريق منا من الشعوبية الغالية فى التعصب على العرب والعربية ، العاملة على الإزراء بهما ، وإرجاع كل مزية فيهما إلى أصل أجنبى صدرت عنه ، أو اقتبست منه ، إن حقا وإن باطلا — هل هذا كله إلا نتاج ما أسلفنا ، وظاهرة من ظواهره ؟

وللعربية سبب آخر يجعل العناية بها أوجب وألزم : أنها لغة الدين الحنيف والقرآن الكريم ، تؤدى بها بعض المناسك ، ولا سبيل إلى استنباط الأحكام ،

وتفهم أسرار التنزيل وإدراك إعجازه إلا بها. لهذا بقيت بحمد الله إلى اليوم، صلة كريمة تربط الخلف بالسلف، على تقادم العهد، وواشجة موصولة بين أمم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها. فنحن اليوم نفهم السابقين الأولين من الأدباء والمؤلفين كما نفهم أمثالهم الذين يعيشون بين أظهرنا، لحرص القوم فى كل عصر على سلامة اللغة، ومنع الهجين أن يداخل الخالص، ويتزيا بزيه، ويجرى مجراه إلا نادرا جدا فالعربية أمانة يجب أن نرعاها حق رعايتها، وأن نورثها أبناءنا كما ورثناها نقية خالصة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فإذا كان من أسباب نمو اللغات الأجنبية تقارض الألفاظ، وتقبل المصطلحات، أيا كان نسبها فإن هذا السبب على إطلاقه غير سائغ ولا مقبول فى تنمية العربية ألبتة. ولعله الآن أشد ما يكون استحقاقاً للمجانبة والنفى، أن كان العصر عصر الكشف والمخترعات المتلاحقة فى العلوم والفنون والصناعات، وحظنا من ذلك لا يذكر إلى جانب حظوظ الأمم الأجنبية منه. فإذا نحن فتحنا باب الاستعارة والقرض - نسلت إلينا العجمة من كل حدب، ودخلت علينا من كل باب، وصرنا مع الزمن إلى رطانة شوهاء ممسوخة لا عربية ولا أعجمية. وهنالك تنقطع الصلة بالدين، ويستغلق فهم مصادره، ويتدابر الماضى والحاضر، فإذا نحن أمة بلا لغة ولا دين ولا ماض مفهوم، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله سبحانه السلامة والعصمة.

لذلك جاء قرار المجمع اللغوى فى هذا الصدد حكيما غاية الحكمة، سديداً السداد كله.

أما دعاة الإباحية فى اللغة فدأبهم فى هذا الموقف كدأبهم فى المواقف الأخرى، يظنون التجديد الذى يتشدقون به - إنما هو تعدى الحدود القائمة، وانتهاك الحرم المصونة فى غير وعى ولا نظر إلى العواقب. وماذا يعنيهم إذا اندفعت العجمة سيلا جائحا يكتسح ما يكتسح. ويفلت منه ما يفلت، ما دام فى هذا وحده فكاكهم من معاناة التحصيل، وتخلصهم من معرة الجهالة والفتور؟ وإذا لم يكن هذا هو داءهم الذى يزين لهم ما يدعون إليه من خطل. فماذا عسى أن

يكون ؟ أتراهم يريدون عن عمد تغليب الأعجمية على العربية ، كما غلبت الصبغة الغربية على بعض مقوماتنا ، وتريد أن تلتئم بعضنا الآخر لتكون في الناس مسخا غريبا لا شخصية له ولا نظير ؟ أم تراهم يريدون خير اللغة ، وأن تكون وافية بحاجة العصر وما يجد فيه ؟ إن كان هذا مرادهم - وهو ما يزعمون فيما نرجح - فهاهم أولاء علماء العربية وسدنتها المنقطعون لتحصيلها وخدمتها ، قد كفلوا أن يبلغوا بها هذا المبلغ مستغنين بأغلاقها المكنوزة ، ونفائسها المجفوة المهجورة عن الاستعارة والقرض ما أمكنهم الاستغناء غير ضانين بمجهود ، ولا مبالين عنتا ولا رهقا .

وهذه مجلة المجمع ، وما يشابهها من المصنفات التي تقدمتها - تزخر بنتائج بحثهم وتقصيهم ، وتشهد بوفرة مادة اللغة ، واتساع فجاجها ، فليهنئوا إذاً كما هنيء غيرهم بما يزجى إليهم عربيا خالصا ، لا هجنة فيه ولا دخل . وما أظن إلا نهم موافق على أن الرجل الذي لا يستنكف من القرض ، وهو قادر ببعض الجهد أن يستغني ، يكون امرأ تكلة ، ضعيف الهمة ، قليل الاعتداد بالكرامة والعزة .

٥٥٥

إن في البلاد اليوم - ولامراء - نهضة فكرية مباركة ، تبدو دلائلها في كثير : تبعدو في المجمع اللغوي وبحوثه المستفيضة ، وتحقيقاته الممتعة ، وقراراته الحكيمة المنتجة ، وتبدو في هذه المؤلفات القيمة وفي الصحف والمجلات الجدية ، بما تتناول من الموضوعات الجليلة ، وتنشيء من المقالات والبحوث في شتى النواحي : بحثا ، وتحليلا ، ونقدا ، وفي المعاهد العلمية والدينية وإصلاحها مناهجها وتقويم خطط الدراسة فيها ، وكثرة من تخرج من العلماء والأدباء ، وفي هذا التعاون الكريم على بعث مصادر الأدب والتاريخ ، وإخراجها في صورة جذابة شائقة ، توافق روح العصر ، وتساير النهضة ، بما يجتمع فيها من أناقة الطبع ، وصحة الضبط ، وتيسير الافادة ، وفي فرقة التمثيل القومية ، بما تتخير من الروايات ذات الشأن ، وما تلتزم في لغتها من صحة البيان ، وفصاحة المنطق محاورة وإلقاء .

نعم تبدو النهضة الفكرية في ذلك كله وفي غيره ، لكنها على تهيئها وتمشي الحياة فيها ، تحتجن الانتفاع ببعض ثمارها من ناحية . ويخالطها بعض شوائب

مستكرهة من ناحية أخرى ، فمن الخير أن نعمل على إشاعة الانتفاع بالأولى ما أمكننا العمل ، وأن نسل من الاخرى شوائبها فى غير هوادة ولا إبطاء ؛ فانما هى بوادر التشكى تظهر فى بيئة الحى أول أمرها واهنة غير بادية الأثر ، ثم تصير بالإغضاء وقلة الاكتراث مرضا يخشى شره وربما استعصى علاجه .

فهذه الألفاظ والمصطلحات التى يستبدل بها بجمع اللغة ألفاظا ومصطلحات أخرى حديثة ، يجب أن يتداولها الاستعمال ، وأن تتبوأ أمكنتها فى لغة الدواوين ومصالح الحكومة ، وفى الترجمة وكتابة الصحف ، وكتب الدراسة وإنشاء الطلاب ، حتى تدب فيها الحياة ، وينفسح لها المجال . فتذهب فى شتى المطالب كل مذهب ، وتجول هنا وهناك ، فتسيغها الأذواق ، وتألفها الآذان ، وتزكو بها اللغة . أما أن يعمل المجمع ويبحث ، لتدون نتائج أعماله وبحثه فى المجلة وكفى ، فإضاعة لجهوده ، وصد عن أداء رسالته . وما أشبه الكلمات والمصطلحات التى يقرها حينئذ بالجنين يولد ميتاً ، أو يوأد قبل أن يعمل فى الحياة عملا ، أو يخلف فيها أثرا . وجدير بحضرات المدرسين - مهما تكن العلوم التى يعلمونها - أن يثيروا فى التلاميذ عاطفة الاعتزاز بقوميتهم ولغتهم ، وأن يكونوا قدوتهم الصالحة فى مجانبة العامية ، والتزام الفصيحة فى الحوار والالقاء ، ما أمكن ذلك ، ليعتادوها قولا واستماعا .

أما ما يجب أن تخلص النهضة من شوائبه ، ونعمل متعاونين على تطهير اللغة منه ، فاللغة العامية . نعم ، فلا يزال لها فينا أنصار ينعبون بها ، ولا يستحيون أن يجهروا باصطناعها ، حتى فى المواقف الجليلة ، التى يجب فى شرعة الذوق والكياسة أن تنزه عنها . أولئك هم كتاب الأدب الماجن وممثلوه ، والمتصدرون لخطاب الناس بالوحى ، من المتظرفين .

ولا ندرى ماذا على أولئك الكتاب والممثلين لو بدلوا بعاميتهم المبتذلة عربية شريفة لا عجمة فيها ولا عوج ؛ إيثارا للخير العام ، وتساميا بالدهماء إلى الفصيحة ؟ إنهم لجديرون أن يرعوا فى أعمالهم خير أمتهم وبلادهم ، كما يرعون فيها خير أنفسهم ، فلا يقفون مواهبهم وجهودهم على تملق الدهماء وإرضاء نوازى

التبطل والاستهتار فى نفوس الخلين والمجان. هم جديرون أن يذكروا فى كتابهم وتمثيلهم أنهم إنما ينزلون من جمهورهم بمنزلة المعلمين من التلاميذ، فليتقوا الله إذاً فى تلاميذهم، وليجعلوا الغاية التى يسعون اليها تأعمالهم هى التثقيف والتهذيب والدعوة إلى الخير والرشاد.

وإذا كان هذا النمط من الأدب الفكاهى لا يقع أول الأمر من المتفرجين بموقع القبول والاستحسان؛ لاعتيادهم النكتة اللفظية تهزهم هزا عنيفا، وتأخذهم بالطرب والإضحاك أخذاً شديدا - فإنهم بالرياضة وطول التمرس حقيقون أن يألفوه، ويسكنوا إليه. على أن فى مفارقات الوقائع وصور الأخيلة الهزلية العابثة غناء عن هذا وعوضا منه.

أما السادة المتظرفون، من المتصدرين للمحاضرة أمام المذياع - فلا أدرى والله مالهم لا يريدون أن يعلم الناس عنهم أنهم أصحاب ذوق سليم، يحسنون التفرقة بين المواقف المختلفة، ويعلمون أن لكل مقام مقالا، وأن العامية إذا خفت على السمع، وساغت فى الذوق لغة للتخاطب والتفاهم فى الأسواق مثلا، فانها فى مواقف الخطابة والتصدى للمحاضرة لتثقل على السمع جداً، وينفر منها الذوق السليم أشد النفور. وما مثل هؤلاء فى هذه المواقف، إلا كمثل الرجل يتوقر فى أسبابه، ويوهم الناس بظاهر حاله أنه متصون محتشم، يحاول جدا من الأمر، حتى إذا اجتمعوا له، وهيئوا أنفسهم لما يأتيهم به، واستوى هو فى مكانه، راح يرميهم بالهزل القبيح. ويأخذهم من حيث لا يحتسبون بالسخف والابتذال، بل ربما كان فى هذه المباغتة ما يخطىء أصحابنا المتحدثين بالوحى من بعث الانبساط، وإثارة الضحك والارتياح فى السامعين.

ويدخل فى زمرة هؤلاء فريق آخر، يتحدث بالعربية الصحيحة المبنى والعبارة المحرفة الشكل والاعراب، فيصك الآذان صكا شديدا بلحنه واعوجاج منطقه. ولا أدرى ماذا على هؤلاء لو التمسوا صلاح أحاديثهم واستقامة لغتها عند أهل المعرفة باللغة، والبصر بصحيحها ومحرفها؟ أهم يظنون المسألة كلاما وكفى، كيفما

كان ، وعلى أى حال تهيأ لهم ؟ أم أنهم يخجلون من طلب الخلاص من هذه المعرة عند بعض الناس ، ولا يخجلون من إعلانها على رءوس الأشهاد ؟

والأغانى كذلك بحاجة إلى الإصلاح معنى ولفظا ، فقد أصبحت لا تلائم عصرنا ، ولا تتفق مع نهضتنا الحاضرة ، لأنها فى الغالب رخوة متهتكة ، لا تصدر عن نفس جادة أبية ، تجانس العصر ، وتستطيع الاضطلاع بأثقال الحياة الحاضرة . ولغتها قل أن تبرأ من العامية ، بل العامية السمجة الوقاح .

إنها يجب أن تكون كلها شعرا رقيق العبارة ، سهل المأخذ ، خفيف الوزن ينظمه شعراؤنا المطبوعون ، الذين مرنوا على علاج هذا النوع ، وألفوا اصطناعه ، وهم بحمد الله غير قليل ، فهذا اللون من الأغانى جذاب الموسيقا ، هين التطريب ، مطاوع التوقيع ، شديد الأسر . وهو فوق ذلك عون على إذاعة الفصيحة ، ورواج سوقها .

ومن منا لا يشيع فيه الطرب ليس أبلغ منه حين يسمع : مالى فتنت بلحظك ، أو : أفديه إن حفظ الهوى ، أو نحوهما من الأغانى الشعرية الراقية ؟ .

على النجدى ناصف